

الفصل الأول

الرجل والدروس

إن سوسير شخصية مثيرة ومحيرة؛ لأنه عاش حياة لم تعرف الصخب. وفي حدود ما نعرف نستطيع أن نقول إنه لم يربأى أزمة عقلية باهظة، أو أى لحظات استبصار أو انقلاب حاسمة، أو أى مغامرات شخصية بالغة الأهمية؛ ورايه المتواضع فى تفكيره، وإن كان هذا التفكير جريئاً لا تسامح فيه، يجعل من الصعب للغاية تتبع أصله فى حياته العقلية الباكرة، كما تبدو حقيقة أن عمله الأساسى كان ينبغى أن يظل غير مكتوب هى الذروة فى هذه السيرة المبهمة.

وقد كان سوسير، الذى ولد فى جنيف فى عام ١٨٥٧، بعد مولد فرويد بسنة، وقبل مولد دوركايم بسنة، ابناً لعالم طبيعى عظيم الشأن وعضو فى أسرة ذات تراث رصين من الإنجاز فى مجال العلوم الطبيعية. وقد وجهه إلى الدراسات اللسانية وهو فى سن مبكرة أدولف بيكتيت، عالم اللغة وصديق الأسرة. وحين بلغ سوسير سن الخامسة عشرة، بعد أن كان قد درس اليونانية لكى يضمها إلى معرفته بالفرنسية والألمانية والإنجليزية واللاتينية، حاول أن يصل إلى «نظام عام للغة»، وكتب لبيكتيت «مقالاً عن اللغات» ذهب فيه إلى أن اللغات جميعاً تضرب بجذورها فى نظام قائم على حرفين أو ثلاثة من الحروف الساكنة الأساسية. ولا بد أن يكون بيكتيت قد تبسم من التبسيط المفرط فى هذه المحاولة الشابة، ولكنه لم يشبط همة صنيعه الذى أخذ يدرس السنسكريتية وهو بعد تلميذ فى المدرسة.

وفى عام ١٨٧٥ دخل سوسير جامعة جنيف، ولكنه سُجل - وفقاً للتقليد الأسرى - طالباً لدراسة الطبيعة والكيمياء، وإن ظل منتظماً فى دروسه الخاصة بنحو اللغة اليونانية واللغة اللاتينية. وقد أفنعت هذه التجربة بأن حياته العلمية متعلقة بدراسة اللغة؛ فهو لم

يكتف بالاشترك في جمعية للمشتغلين باللغة، هي جمعية باريس اللغوية، بل حث والديه، حين شعر بأن السنة الأولى التي قضاها في جنيف ضاعت سدى، على أن يرسله إلى جامعة لايبتيج لدراسة اللغات الأوروبية الهندية.

وكانت لايبتيج اختياراً سعيداً؛ فقد كانت مركزاً لمدرسة تضم علماء اللغة الجدد ذوى النزعة التاريخية، يطلق عليها اسم مدرسة فقهاء اللغة الجدد (Neogrammarians) Junggrammatiker، ووجد سوسير نفسه قادراً على أن يتبادل الخواطر مع أكثر علماء اللغة إبداعاً في زمانه. ولاشك في أن إحساسه بقدراته الخاصة قد تأكد عندما استكشف واحد من أساتذته في لايبتيج هو كارل بروجمان Karl Brugmann، ما يسمى قانون جرس الصوت الأنفى nasal sonans، الذى كان سوسير قد توصل إليه قبل ذلك بعدة سنين، ولكنه رفضه لتعارضه مع فروض علماء اللسان المرموقين.

وقد أقام سوسير فى لايبتيج أربع سنوات، باستثناء ثمانية عشر شهراً قضاها فى برلين. وعندما بلغ سن العشرين فى عام ١٨٧٨ نشر مذكرة عن النظام البدائى لحروف اللين فى اللغات الأوروبية الهندية *Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes* سماها أحد علماء اللسان «أروع عمل ظهر على الإطلاق فى فقه اللغة المقارن». وسوف نناقش فكرة هذا العمل ونتائجه فيما بعد، ولكن أشد ما فى الأمر إثارة هو أن عالم اللسان الشاب كان عليه أن يهجم على مشكلة عريضة وأساسية فى العلوم اللسانية التاريخية، وأن يؤكد أهمية المشكلات المنهجية. وقد كتب فى المقدمة يقول: «إننى لا أجيل الفكر فى أمور نظرية مستغلقة، ولكننى أبحث فى أسس الموضوع ذاتها، التى يصبح كل شىء بدونها غير مستقر، واعتباطياً، وغير يقينى».

وقد استقبلت المذكرة فى أنحاء كثيرة استقبالاً حسناً. وعندما عاد سوسير من برلين إلى لايبتيج سأل أحد الأساتذة عما إذا كان ينتسب على أى نحو إلى سوسير عالم اللسان السويسرى العظيم وصاحب المذكرة. ومع ذلك يبدو أن سوسير قد وجد ألمانيا

غير ملائمة له؛ ومن ثم فإنه رحل إلى باريس بعد أن وقف للدفاع عن رسالته في موضوع استخدام حالة الإضافة في اللغة السنسكريتية (التي منح عليها درجة الدكتوراه بامتياز).

وفي فرنسا لقي سوسير نجاحاً ملحوظاً؛ فقد بدأ بعد وصوله إليها بقليل في تدريس اللغة السنسكريتية والقوطية، والألمانية الراقية القديمة، في المدرسة العملية للدراسات العليا. وبعد عام ١٨٨٧ وسع سوسير من نشاطه التعليمي ليشمل فقه اللغة الأوربي الهندي، بصفة عامة. كذلك كان له نشاطه في جمعية باريس اللغوية، كما كان له تأثير إنشائي أساسي على الجيل الجديد من علماء اللسان الفرنسيين. ولكنه قرر العودة إلى سويسرا في عام ١٨٩١ عندما منح كرسى الاستاذية في جامعة جنيف، ولم يفلح في إبقائه في باريس ذلك الشرف الذي أسبغه عليه زملاؤه الأقدم حين جعلوه يحمل اسم فارس وسام الشرف Chevalier de La Légion d'Honneur.

وفي جنيف كان تلاميذ سوسير أقل عدداً وأقل تقدماً في الدراسة؛ وكان يعلمهم السنسكريتية والعلوم اللغوية التاريخية بصفة عامة. وقد تزوج، وأنجب ولدين، وتادراً ما خرج للسفر، وبدا كما لو كان قد استقر في شرنقة من العزلة المريحة. وتناقصت كتابته شيئاً فشيئاً، ثم صار لا يكتب إلا على مريض وبعد لآى. وهو في خطاب له يرجع إلى عام ١٨٩٤، ويمثل وثيقة من الوثائق الشخصية الكاشفة التي تملكها الآن، يشير إلى مقال كان قد دفع به أخيراً إلى أحد الناشرين، ثم يستأنف قائلاً:

لم يعد لى صبر على هذا كله، وعلى ما ألقى من صعوبة عامة في أن أكتب حتى عشرة أسطر في مسائل لغوية تكون جيدة المعنى، وعلى مدى زمن طويل كنت مشتغلاً قبل كل شيء بالتصنيف المنطقي للحقائق اللغوية، وتصنيف وجهات النظر التي نعالجها بها. وأنا على وعى يتزايد يوماً بعد يوم بالقدر الهائل من العمل الذي يتطلبه تعريف المشتغل بالعلوم اللغوية طبيعة عمله... وإن القصور التام في المصطلح الحالي، والحاجة إلى إصلاح شأنه، ثم تبيان نوع الموضوع الذي تمثله اللغة، وذلك من أجل إنجاز ذلك

الإصلاح - كل هذا يفسد على نحو متصل ما أجده في فقه اللغة من متعة، وإن لم تكن لدى رغبة أعز من ألا أوضع في موضع التفكير في طبيعة اللغة بصفة عامة. وسوف يفضى هذا - على الضد من إرادتي - إلى وضع كتاب أشرح فيه بغير حماسة أو انفعال لماذا لا أجد معنى لأي مصطلح من المصطلحات المستخدمة في مجال العلوم اللغوية. واعترف بأنه عندما يتم هذا سأكون قادراً على استئناف عملي من حيث توقفت (١).

ولكنه لم ينجز هذا الكتاب قط. لقد اشتغل بالاساطير اللتوانية، وبالاساطير المانيا في العصور الوسطى، وبنظرية تذهب إلى أن الشعراء اللاتينيين أخفروا في أشعارهم بعض التقاليد والتباديل التي تتعلق بأسماء أشخاص حقيقيين. ولكنه في عام ١٩٠٦، وفي مناسبة تقاعد أستاذ آخر، أسندت إليه الجامعة مسئولية تدريس علوم اللغة العامة؛ ومن ثم القى في السنوات التي أعقبت هذا (١٩٠٧، ١٩٠٨، ٩ - ١٩١٠، ١١) المحاضرات التي صارت في نهاية المطاف دروساً في علم اللغة العام. وفي الصيف من عام ١٩١٢ أصابه المرض، وفي فبراير من عام ١٩١٣ لقي ربه، وقد بلغ من العمر ستة وخمسين عاماً.

وعلى الرغم من أن مسيرة سوسير قد أصابت حظاً كبيراً من النجاح فإنها لم تكن بحال من الأحوال غريبة في بابها. وقد كان من الممكن أن تضمن له كتاباته المنشورة مكاناً محترماً في تاريخ فقه اللغة، ولكنه مكان يعادل تقريباً مكان فقهاء اللغة الجدد المهمين، أمثال بروجمان Brugmann، وفرنر Verner، الذين لا يعرفهم اليوم سوى علماء اللغة. ولحسن الحظ أن تلاميذ سوسير وزملاءه فكروا في ضرورة الحفاظ على عمله في ميدان علم اللغة العام، فصنعوا المجلد الذي يجعل منه مفكراً أصيلاً.

ولم يكن ذلك بالعمل الهين؛ فسوسير لم يحتفظ - فيما يرويه شارل بالي Charles

(١) خطابه المؤرخ في ٤ يناير ١٨٩٤، المنشور في:

"Lettres de F. de Saussure à Antoine Meillet", Cahiers Ferdinand de Saussure, 21 (1964), 95.

Bally، وألبرت زيشيهاي Albert Sechehaye في مقدمتهما للدروس – إلا بالقليل من المذكرات؛ فكان عليهما أن يستخدمنا في عملهما المذكرات التي قيدها الطلبة الذين حضروا له سلاسل محاضراته المختلفة. ولكن حتى عندما تم الحصول (عن طريق المقابلة بين المذكرات ومقارنتها) على فكرة تقريبية عما قيل في كل سلسلة مكونة من ثلاث محاضرات، ظلت هناك مشكلة رئيسية. ذلك بأن نشر مخطوطات كل السلاسل على ما هي عليه كان سينطوي على تكرار هائل (ودعنا من التعارضات)، ولكن نشر سلسلة واحدة كان معناه حذف الكثير، مادام يبدو أن سويسر قد ألف كل سلسلة من الدروس تأليفاً جديداً وفقاً لخطة مختلفة. وعندما واجه بالي وزيشيهاي هذه المشكلة، وهما زميلان لسويسر لم يحضرا بنفسيهما محاضراته، واتخذوا قراراً جريئاً كان مسؤولاً إلى حد بعيد عما كان لسويسر من تأثير؛ فقد قررا أن يؤلفا عملاً موحداً، وأن يجتهدا في تحقيق بنية مركبة، مع التسليم بالأولوية للسلسلة الثالثة من الدروس، ولكن مع الاعتماد الشديد على مادة مأخوذة من السلسلتين الآخرين، وعلى مذكرات سويسر الشخصية.

إن معظم المعلمين ليرتجفون إذا خطر لهم أن آراءهم عوملت بهذه الطريقة؛ وإنه حقاً لمن غير المؤلف أن ينتج هذا الإجراء الذي لا يرجى منه خير، الحافل بإمكانات سوء الفهم والتسامح – أن ينتج عملاً كبيراً، ولكن الحقيقة القائمة تقول: إن دروس علم اللغة العام على نحو ما صنعها بالي وزيشيهاي، هي مصدر ما أحدثه سويسر من تأثير، وما أحرزه من شهرة، ولم يكن من الممكن تجاوز النص المركب إلى مدى بعيد للغاية إلا في عام ١٩٦٧، عندما بدأ رودلف إنجلر Rudolf Engler في نشر مذكرات الطلبة التي ركبت منها الدروس. لقد كانت هي الدروس نفسها، التي أثرت في الأجيال المتعاقبة من علماء اللغة.

وتطرح علينا هذه الحقيقة مشكلة من نوع ما للمناقشة؛ فمن ناحية نجد أن أهمية سويسر في علم اللغة وفي الحقول المعرفية الأخرى هي أقل اعتماداً على ما فكر فيه حقاً، منها على ما تشتمل عليه الدروس. ومن ناحية أخرى فإن سهولة الحصول على مذكرات

الطلبية يحرك في المرء الرغبة في إبراز المواضيع التي يبدو فيها أن المحررين قد منحنا نفسيهما الحرية، أو أخطأ الفهم، أو زيفاً فكر سوسير. لقد قاما في العموم بعمل رائع، ولكن هناك سبب قوى لتقرير أنهما كانا في حالات ثلاث أقل نجاحاً مما قد يتوقع المرء منهما: فمن المحتمل ألا يكون نظام عرضهما هو ذلك الذي ربما اختاره سوسير، وأنه - من ثم - لا يعكس السياق المنطقي القوي لتفكيره؛ وأن فكرة الطبيعة الاعتباطية للعلامة تظفر على أيديهما بمناقشة أقل كثيراً مما هي عليه في المذكرات؛ وأن المحررين عند مناقشتها للمستوى الصوتي للغة كانا أقل تدقيقاً واتساقاً في مصطلحاتهما، مما كان الأمر عليه عند سوسير؛ وهذه مسائل مهمة لا يملك المرء إهمالها كلية. ومن ثم فإنني في المناقشة الآتية، وإن كنت سأشغل نفسي بصفة مبدئية بالدروس نفسها، سأحاول بين الفينة والأخرى، وبخاصة من خلال نظام العرض، أن أعيد بناء ما أرى أنه منطقي تفكير سوسير على نحو أدق، إن الاهتمام الأساسي ينصب على التعاليم الموسيرية في الدروس، وعلى موقعها من تاريخ علم اللغة؛ ولكنني في عرضي لنظرية سوسير في اللغة، التي نتوجه إليها الآن، لن أتردد في تصحيح هفوات المحررين الأصلية العارضة.